"كيف لي لوحة أصيلة وحلوة"

لوحته قصيدة من اجل ارض، ملونة بفواتح المواسم وهناءتها، ولوحته اصابع اتهام تدل على فظاعة الحرب وتحاكم نتائجها. ولوحته تعددية فنان يركب عقارب الزمن ليرحل في عمق الماضي ومجهول الآتي.

مسحة البراءة في ملامحه، تخفي قلقا، حدا مسنونا، وعينان ثاقبتان وراء بحيرة النظرات الفتية.

قلم الباستيل في جيبه يكتب به، يلون، يملأ المساحات البيض، به يعمشق وثبات عمودية، هيروغليفية، نقرأها قصيدة صينية، ارتجالات مولودة من ومضات كئيبة، فرحة، عفريتة. يوقع ويهدي ويؤرخ، وتطل الشطوب الرمادية، الصفراء، الخضراء...

جميل ملاعب يتكلم لغة الاوراق الحبلى بنقوشه وعلاماته، لغته وجوه ومدن وعقارب زمن، كتب على بابها عنوان درب وانسان : بيصور. من حشيشها يمتلىء نسغا، من ازهارها تلاوين، وصباغات، من نسائها المتشحات بالمناديل البيض اسرار تزداد لغزا في كتاباته، من عصافيرها اجنحة تطير به الى بلاد الاجانب، الى بلاد العجائب، يفرغ فيها دسم صبار قريته، مادة تصون الهوية، تراعي الحنين، تحك الالتزام بالارض دوما، تغسل الغربة من ضباب الغربة. فيعود محملا بالتجارب والاختبارات، مشتاقا الى بيصوريته،، الى المناديل البيض، الى الرحم الارض. وهو في لبنان، الجزائر، الولايات المتحدة، يكتشف، يسبر، يزيد الى كيله كيلين واكثر. وفي كل محطة حوافز تشده الى ابعد. ولان الارض مدورة، يجد نفسه بعد كل جولة عند نقطة الانطلاق : بيصور، البيت، الجرد الجاف شتاء، الدسم ربيعا وصيفا، المحترق بالاحمر خريفا.

في ١٩٧٢ تخرج جميل ملاعب من معهد الفنون الجميلة في الجامعة اللبنانية، وبعد عام التحق بمدرسة الفنون الجميلة في الجزائر، هذا الخط المسنون بين الشرق والغرب، وفي ١٩٨٧ حاز ماجستير فنون في معهد براث في نيويورك. وتابع اختصاصه فنال دكتوراه فلسفة في التربية الفنية من جامعة اوهايو في الولايات المتحدة العام ١٩٨٩. وتعليم الرسم والنحت في الجامعة اللبنانية يمارسه منذ ١٩٧٧. في بداية طريقه التشكيلية استحق جائزة متحف سرسق للنحت العام ١٩٦٨، وله معارض فردية في لبنان والجزائر وواشنطن وبروكلين ونيويورك وكولومبوس واوهايو.

فلش امامي صورا لاعمال متعددة المراحل، متعددة التقنيات، متعددة الامزجة تجعل تحديد الفنان صعبا. اذ اشتغل نحتا وحفرا ولون بالباستيل والغواش. وارتاح الى صور من الضيعة، واستراح في بيت الام، في فيء شجرة، جانب رطوبة شتلة. تحفى من اسفاره الطويلة واراح ساقيه الواقفتين، واستمع الى ثرثرات النساء وصدى غربالهن.

ونجده في طقوسيات البارلييف ورموزها، يفك كتابات ويعيد بها بناء ذاكرته الاسطورية والواقعية.

ونتصفح كتاب الحرب الاسود المحترق شهبا بيضاء : موت ودمار، قاتل ومقتول، ضحية وجلاد وطيور مفترسة هي للذكرى، للذاكرة :

"- اشتغلت في جو الحرب لا لخدمة الحرب. رسمت ما جرى وكأني اقتل ما جرى. رسمت مشاهد قتل لاعزم القتل ولكي اقتل المشهد، وبكوني رساما، لم يكن في وسعي شيء آخر. منذ ١٩٧٦ حاولت تجميد المأساة ضمن شكل فني. همى لم يكن تحريضيا، بقدر ما اردت اظهار بعض الفظاعات. وكأن اللوحة عبرة لقساوة الانسان، فيرى بعينه كم يمكن العنف ان يضر ويؤذي.

احب بلدي

● كيف يمكن تحويل المأساة الى شكل فني ؟

- انا احب بلدي ولا اهرب من واقعه لذا واجهت هذا الواقع بتحويله الى فن ولون ولوحة. نفذت حول هذا الموضوع المأساوي ثلاث مجموعات فنية ضمن كتب من السهل ايصالها الى الناس.

● وهل حددت المأساة ضمن تاريخ معين من هذه الحرب ؟

- جمعت الحرب الاهلية الممتدة على سنتين اي ١٩٧٥ و ١٩٧٦ في دفتر احتوى رسوما عن الانسان في هذا الوطن، تقول عذاباته. المادة التقنية كانت المحور اعبر بها عن شكل المأساة. اردتها مميزة توازي التعبير عن الخوف والقلق واليأس، لذا لجأت الى الحفر على الخشب باللونين الاسود والابيض.

● اذا استثنينا رسوم الحرب التي نقلت بعض المشاهد في حرفيتها وواقعها، نجدك تعمقت في هوية الارض وتراث الشعوب.

- اختبرت في بعض اعمالي مفهوم التقمص، عالجت الانسان المعزول في احضان وحدته ينتظر الفرج، باسلوب عمودي. فالاعمدة مرتبطة بتراث اللوحة. انها نوع من الصفحات المقروءة بالفن المصري وهو عبارة عن لغة، ام بالفن السومري وهو عبارة عن شكل مجرد ومسطح.

[هكذا نجت لوحة جميل ملاعب من محدودية الزمن. استحضرت من الماضي رموزا حاكمها مع الحاضر. ضفرها بدينامية، خلطها بعمارة انسان اليوم، بهمومه فتآخت.

وبين المكان يا ما كان واليوم زالت حواجز الازمنة، وهذه ناطحات السحاب، تمثال الحرية، الدولار في مثلث تقطع زاويته المسنونة مسار الباريلييف، تعيد خلط الاوراق، تهز جذورنا].

● لكنك لم تتلاعب بمادة الحرب، فروبتها بسوادها وبياضها.

- الحرب فصل فريد من حياتي التشكيلية. الابرياء على وجداني، اكاليل الموت الذابلة تنتن في شمي. مواطنون اداروا ظهورهم للبنادق ينتظرون الطلقات المميتة. ودوما بيروت بيروت بين الجد والهزل. مقهى شعبي، زحمة السير، بيروت ١٩٧٨ الخالفة. السوق الاستهلاكية حيث الانسان تعبير الادوات التي يبتاعها، هي دخلت حياته وتقاليده، فصورته وسيلة لنقل الاشياء واستهلاكها. صورت ميكانيكيته اللاواعية كل ذلك في مجموعة من اربعين لوحة موزعة على ثلاثة مؤلفات.

● ماذا تعلم طلاب الفنون الجميلة ؟

- اعطي مادة الحفر حيث التركيز على قساوة الاسود والابيض. في نيويورك عمقت في ١٩٨٤ هذه التقنية تناولتها من جوانبها العديدة وفي معهد برات الفني حضرت ماجستير في هذا الموضوع حاز نجاحا. ولم اشف. فمن الماستر قصدت جامعة هاي سنيث كملت دراستي وحزت دكتوراه فلسفة في التربية الفنية وعدت الى لبنان انقل ما اكتنزته الى طلابي.

● وهل ثمة ما استهواك في الفن الاميركي الحديث ؟

- انا قصدت اميركا بنهمي الى المعرفة واضافة الكثير الى مخزوني. قصدتها بعينين مشرعتين على كل محترف وبنفس نهمة استيعاب ما يجري في هذا العالم المتحرك بسرعة البرق. تسنى لي القيام بدراسات حول الفن الاميركي. تكيفت مع الكومبيوتر. اشتغلت عليه شعرا بصريا ورسما. والمادة تحمل اسم الشعر في الكومبيوتر. في نيويورك ٨٧ ادخلت الكلمة في الصورة على شكل نقاط هي اسرع مما يتصوره المرء. انها تماما كالصورة التي تعبر في الخيال وعلى متنها الفكرة العبارة.

● وكيف كانت ردة الاميركيين ازاء تجربتك ؟

- الشعراء الاميركيون اعجبوا بانجازي، فالتجربة مثيرة. تصوري ان يطبع الكاتب او الشاعر - الرسام كتابه وهو جالس الى الكومبيوتر. التجربة والرؤيا لم يقف حاجز دون تنفيذهما.

● هل المناخ الاميركي والاجواء المسرعة في تبدلها هما ما وضعك امام الازرار وشاشة الكومبيوتر ؟

- بل الاشياء التي كنت افكر فيها طفلا، واحلم بتحقيقها، وجدتها في هذه الآلة، فاصبح تطبيقها سهلا. فما هو الفن ؟ انه تطبيق الاشياء، لا تخزينها، الكومبيوتر سمح لي بالخروج من فكرتي، استخراج هواجسي من خزانها الى رؤيا صحيحة سهلة.

المناديل.

● اراك ستفتش دوما وتبحث استمرارا عن جديد تنقل به عالما صاخبا في رأسك.

- ابتعد في مساري الفني عن التقليدية، الاشياء غير العادية تستهويني، اجد فيها متفجرا لفني. ومنها مثلا اني اضع المسجلة تحت رأسي لانام. فتدخل موسيقى الجاز الى خلاياي فتضيف جديدا مثيرا الى احلامي. الحياة في نيويورك واستعمال الآلة جعلاني اتحسس اللحظات بشفافية اكثر، واقتنع بان الشهادة ليست مهمة عند دخولنا الى المحترف، بل ما نواصل اختباره في كل لحظة في حياتنا في هذا المحترف.

● هل للآلة مردود عكسي على عفوية الفنان ؟

- الآلة لا تقف عقبة اذا كانت الرؤيا قوية جادة. انها كالآلة الكاتبة سهلت على الشاعر او الاديب طباعة ادبه دون ان تمنعه. صار في وسعه التفرج على كلمته مطبوعة".

● اين وصلت اليوم في محفورتك ؟

- كملت التجربة بالحفر على الخشب. جملت المأساة صارت لوحة ملونة كالصبار شائكة وناعمة في آن. قاسية بتعابيرها عذبة بالوانها ما يخفف من وطأة المأساة.

● ومن تجربتك الجزائرية ماذا استخلصت من معرض حرب الاقصى اميركا، والشرق المتفيء على ضفاف الغرب.

- التيارات الفنية في الغرب تأثرت بمناخ الشرق الجزائري. دولاكروا الذي شارك في نشر الاكزوتية الشرقية بين الفنانين الرومانطيقيين، وبول كلي وماتيس جاءوا الى الجزائر واستوحوا تقاليدها وشمسها. احسست باني اولى منهم بقصد بلد عربي ومن خلالها اصنع لوحة واقعية، تراثية، شرقية دون الغاء انتماءتي الى عصر التقنيات والتكنولوجيا. من هذا الواقع مضيت الى الجزائر وفي اقتناعي البقاء على اصالتي ونظافتي الشرقية المجردة.

● وهل الموشحات بالمناديل البيض ومعتمرو اللبادة ايماءة الى الاصالة الشرقية النظيفة ؟

- حين يلبس الانسان ازياء راسخة في تراثنا لاسيما اللبادة والمناديل يرجع اربعة آلاف سنة الى حضارات وعادات سومرية وفينيقية، من الصعب اذن الغاء هذه الملامح، هي ذاتها تدخل في اللوحة والفولكلور والنفسية. الشكل فارض وجوده فكيف الخيال ؟

● قيم حلوة

● ملامح الماضي الغابر تملأ جغرافية بيصور.

- انها ملامح اليوم في قرى التزمت تراثها القديم اسلوب حياة وتقديسا لماضي الاجداد. نجدها في العديد من لوحاتي : امرأة في بيصور تشتغل بشرانق الحرير، رأيتها تتحرك، راقبت انشغالها بضمير يحافظ بغار على العادات. بعد عودتي من اميركا رأيت الاشياء على حقيقتها اكثر. لمست صبر الانسان وايمانه وقبوله. اختياري لموضوع التراث المعيوش، الباقي كالازل له معانيه، عبره حاولت ان ادل على قيم حلوة، الغرب قام بهجمات كبيرة علينا باشكال همها ليس تطويرنا بل تشغيلنا وسلبنا الشخصية الحقيقية لهويتنا وارباكنا.

● كيف وعيت الخطر الزاحف على الفكر والهوية ؟

- تعلمت على عشرات المعلمين، الناس يعلمون والاولاد يلقنون دروسا بصدقهم ونورهم الداخلي. من كل انسان استفدت، اتعلم واعلم، كيفية المحافظة على الايمان. الايمان بالفكر بالوطن، بالجمال. وفي كل ذلك ما يشكل قوة تمكن الانسان من مد يد المساعدة للآخرين فتتكتل المحافظة على الرؤية الصحيحة.

● دن يرى محفوراتك لا بد له ان يلاحظ الجدية الصارخة التي لا تقبل نزوة. ومن يتفرج على رسومك المستوحاة من الضيعة يعيش تفاصيل الحياة فيها، يشم ويتذوق ويرى ويلمس. ابن الارتجال في فنك وانت ارتجلت منذ هنيهات عموديات بالباستيل الاصفر والرمادي، والاخضر، وقعتها واهديتها الى مي هنسى.

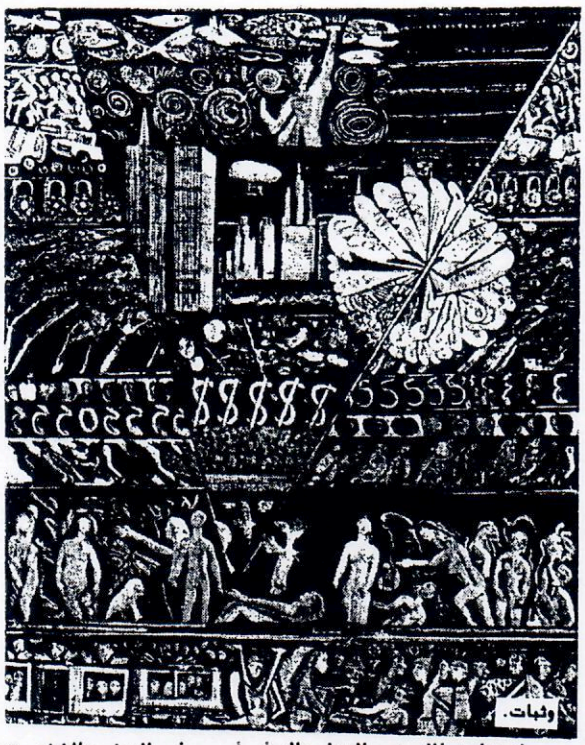

وثبات.

ـ من يرتجل يمارس هوايات. وانا لست هاويا، ليست لدي هوايات امارسها. جميل ملاعب الطفل لم يلعب. وكبر ولم يلعب بالداما والورق. لا صبر لدي للانتظار ولخدع معينة. الورقة والقلم سلوتي وفي آن المنطلق لتطوري. الرسم ليس تسلية فحسب ما دام التحدي يرافقه دوما مقرونا بالمغامرة.

● في ملامحك اقرأ ازدواجية : خيالا وواقعا، وداعة وهجومية.

ـ اعتبر نفسي انسانا قلقا يشتغل بطريقة هجومية والمفاجأة هنا لا تعني اني اشتغل لارى المستقبل امامي. لا احب معرفة الغد بالضبط. لا احب ان اتصور حالي كبيرا. لدي اشياء متنوعة انا مسؤول عنها. احساسي المرهف وقلقي وانعدام صبري لا تخولني ان اكون ثابتا في اي مجال كان. هذا الوضع مثير وصعب في آن. صعب لانه يجعل قلقي مستمرا وعلى المحك دوما. اللوحة مصدر خوف لي. اقف امامها مرتابا وكأني استمرارا امام اللوحة الاولى، كأني بعدها يتعذر عليّ صناعة اخرى. وامام كل عمل جديد اشعر باني انسان جديد نسي الماضي وبدأ لتوه يرسم.

● وماذا عندما تقارن بين السابقة والتالية ؟

ـ اجد انها لا تقل قيمة عن سابقتها وفي الوقت نفسه متميزة عنها. بيد اني اتساءل ازاءها أكان ما اعمله صحا. اتساءل عن المواد التي بين يدي هل تلبي الرؤيا.

استعمالي للمواد احساس جارف يجعلني احيانا فاقد الصبر حتى لا اعي وضعها على ملوانتي خوفا من ان تسبقني الرؤيا وان يهرب الخيال فتخف الطاقة. القلم المبري افضل من اللون الذي هو محتاج الى، مزج وخلط. فكم عامل السرعة اساسي في المقارنة بين الخيال واللون الجاهز. الومضة لا تنتظر. لذا استعمالي للغواش والباستيل اسرع لالتقاط الومضة اللونية قبل ان تضل في عملية تجهيزها.

[عندما سحب ثلاثة اقلام باستيل من جيب قميصه واخذ برشاقة لاعب الالعاب الخفية يشتغل. يلتقط اشكالا يملأ بها الورقة البيضاء. انها مهارة الحوار بين القلم وما يجول في خاطره من كتابات وخطوطيات : "ـ اسرع في رسم شجرة قبل ان يدهمها الزمن ويغير ملامحها. الفنان عليه ان يلاحق الجمال ليظل قادرا على تكرار لحظات الوحي التي تعبر في موهبته"].

● ازاء التزامك المطلق لفنك كيف تخصص لحياتك حصتها ؟

ـ واقع الفنان صعب لان الانسان مشغول بالعيش لان كل ذرة مسموعة او مرئية او ملموسة تتسلل الى كيانه وتتفاعل سلبا او ايجابا. متيقظ دوما على اهبة القلق. والصور التي تدخل الى فكري دونما استئذان كنشرة الاخبار مثلا تعرضني الى عملية احتيال تشوش تفكيري، كيف عساي اتلقى الصور التي تزعجني وصوت الموتور عال، كيف لا تنهدر طاقتي من زحمة السير، كيف انطلق من واقعي الطبيعي المريح الذي ينمو متلائما مع تراثي، كل ذلك حجارة اساسية في صلب اللوحة، تؤدي بي الى سؤال آخر : كيف عساي اصنع لوحة اصيلة وحلوة واجيب : عليّ أن احفظ نفسي من الغوص في الاشياء الزائلة.

● تساؤلاتك تلك تتطلب منك غسلا متواصلا لافكارك، هل في استطاعتك ذلك؟ (فكر مليا).

ـ استطيع ذلك عبر العمل والسفر في الطبيعة.

● اين تجدها ؟

ـ في لبنان اينما كان، في بيصور القرية التي تحاول المحافظة على طابعها. الانسان فيها مستمر تعلقه بحب الارض والشغل فيها وايمانه وتقشفه واكتفاؤه الذاتي. تصوري هذا الانسان يعاني مغريات كثيرة حوله. وما من تشجيع للصناعات المحلية والمنظر المحلي والفكر المحلي. سافرت الى اميركا. جدي قبلي سافر، لكن علينا ان نقاوم السفر والاغراء الذي يقنعنا باننا برا نجد الحرية والجمال، هذه الاغراءات خطيرة لان عمرها مئات السنين. المأساة قومية والاخطر من الحرب هو الهجرة، الفقر دفع الناس الى البحث عن الثراء، لبنان كتب له الغزو المتواصل. الناس جميعهم يأتون الى لبنان ويحبونه واللبناني يرحل عنه والسبب تعرض الفكر للاغراء الكاذب.

● ماذا تفعل في الوقت الحاضر ؟

ـ ارسم واشتغل في بستاني ازرع اشجارا مثمرة واستمد من الطبيعة افكارا واحاول البقاء على علاقتي بالخارج. ارسم لوحتي خارج الدار. استفيد من لون الازهار وتنوع الامور من الصباح حتى المساء، كما اراقب تغيير الفصول.

● اختبرت الكومبيوتر وارتحت لتجاربك فيه وها انت منغمس في طبيعتك. فهل تتكيف الآلة مع هذا الالتصاق بالارض ؟

ـ الطبيعة وحي مستمر اضافة الى الانسان المتحرك في هذه الطبيعة، العائش في بيته، الضامن خلفيته من جدران ونوافذ وابواب وقنطرة وطير وماء وآنية، كل ذلك عناصر للوحتي اذن لماذا استعير مواردي من الخارج ؟ بل بها ادخل الى الغرب وتقنياته.

● ما دمت ابن الطبيعة فهل تجد في مساحة الورقة فشة خلق لملمسك ؟

ـ بل افضل عليها الخشب، احس بانه مادة قادرة على ان المسها. اريح عليه خيالي واثبت رؤلي بالحفر، كما يتعبني جسديا والجهد الجسدي مريح لي، النحت في الصخر والخشب تمارين للجسد. وهذه التمارين تنفذ رؤى وصورا من الخيال اشكالها، كما تجعل الفنان يعيش في عالمه المختار. رأيي انه الحل الوحيد حتى يتمكن الفنان من فصل نفسه عن مشاكل الحياة.

● اعود بك الى الجزائر. متى كانت تجربتك فيها ؟

ـ في ١٩٧٢ تخرجت من معهد الفنون في لبنان وحصلت على منحة من الحكومة الجزائرية للالتحاق بالمعهد الوطني للفنون الجميلة. استفدت في الجزائر من طبيعتها التي تشبه طبيعتنا اضافة الى تراث شرقي عريق، وفي آن على مقربة من اوروبا ومدرسة باريس.

خاصة في تلك الآونة والجزائر خارجة من حربها، صدمتني التعبيرية القوية على وجوه قاسية. هذه التعبيرية دفعتني منذ ذلك ان اعبر عن عذاب الانسان ومأساته وتعرض الانسان الجزائري لاستعمار طويل.

عشت تجربة فنان هو وناس البلد وما تعرضوا له من استغلال وحرب. يومها لم تكن لدي ازمة شخصية، الى ان بدأت حربنا فكانت استمرارية لفني. ولوحاتي بالاسود والابيض تكلمت فيها عن الجنوب المجروح المغتصب.

● اذن الجزائر كانت تواصلا لتراثك وانطلاقة لمفهومك للحروب والاحتلالات.

ـ الطالب اللبناني ان تعلم الفن في باريس يحفظ اشياء لا تمثله. يتعلم تقنيات، يعود الى تراثه ليحمله، يقع البعض في ازدواجية اذ يفكر بالفرنسية ويأكل خبزا مرقوقا.

● وما الحل ؟

ـ الفن يحتاج الى تربيته ضمن برنامج طويل تعتمده وزارة التربية فيفهم المرء كيف عليه ان يتعامل بتراثه ولا يتهرب من الاختراعات والتقنيات والوسائل التي تلبي حاجاته الفنية وتزيدها وسعا وتعبيرا.

انا مع استهلاك السيارة لكن من الافضل اناتعلم ميكانيكيتها وطريقة تركيبها قبل سوقها فتتمكن من الاختراع.